

# تَطَوُّرُ النَّفْسِ الْبَشَرِيَّةِ

## وَتَطَوُّرُ النَّفْسِ الْكَبِيرِ

لحضرة صاحب السعادة علي جمال الدين باشا

كل شيء في هذه الحياة يتطور ، ويتناول التغيير والتعديل ، والتقاليد تتطور ككل شيء ، كلما مر الزمن وتغيرت الأحوال ، وجدت أفكار تؤثر في المجتمع وفي الظروف التي تحيط به .

إلا أن تطور الأفكار أسرع من تطور التقاليد وأكثر حركة وعنفاً ، فإن نظرية من النظريات العلمية أو فكرة من الفكر الفلسفية قد تحدث انقلاباً عليها أو فكرياً ، ولكنها لا تحدث مثل هذا الانقلاب في التقاليد الاجتماعية ، وقصارى ما تصل إليه أن تكون ذات تأثير في هذه التقاليد .

وكل حضارة من الحضارات البشرية ، يمكن تقسيمها قسمين : ثقافة ومدنية .

فأما الثقافة فتشمل الدين والفن والأساطير كما تشمل القواعد الخلقية والتقاليد الاجتماعية وما يتصل بها من أوضاع الحياة اليومية الخاصة والحياة الروحية العامة .

وأما المدنية فتشمل النظريات العلمية والفنون التطبيقية ، وكل ما يتصل بالفكر المجرد أو الحياة العملية من أوضاع .

وهذا التقسيم ليس حاسماً ولكنه ملحوظ ، فالشعوب تستطيع أن تتبادل العلوم البحتة وتطبيقاتها العملية ، كما تتناول المذاهب الفكرية بلا صعوبة ، ودون أن تبدو هذه الأفكار والنظريات غريبة عن موطنها أو مرتدة غير نوبها . ولكن العقائد والفنون والأخلاق والعادات لا تستطيع أن تنقل من بيئتها إلى بيئة أخرى دون أن تشعر بشيء من الغربة كثير أو قليل .

هذه ظاهرة ملحوظة في انتقال الثقافات والمدنيات بين الشعوب قديماً وحديثاً . وهناك ظاهرة أخرى ملحوظة كذلك في محيط الشعب الواحد ، وهي أن النظريات العلمية والمذاهب الفكرية دائبة التطور سريعة التغير ، أما الكيان الروحي والتقاليد الاجتماعية فتتمتع بشيء كثير من الثبات والاستمرار والمقاومة

وكلنا هاتين الظاهرتين طبيعية وذات نفع . فأما أنها طبيعية فلأن الفكرة يسهل قبولها في العقل كما يسهل تغييرها بظهور فكرة أخرى ، والنظريات العلمية حاضعة للتجربة تنفيها أو تثبتها ومن العبث التعلق بها بعد بيان بطلانها

أما العقيدة وأما التقاليد وأما الاتجاهات الفنية والخلقية فمن الصعب اعتناقها ومن الصعب كذلك التخلي عنها . والتقاليد تنشأ من العقيدة والعادة ، وتصل العادة في النفس الإنسانية لا يكون إلا بالتكرار في أزمان طويلة .

وأما أنها نافعة فلا أن الفرد والأمة لا يضرهما شيئا أن يأخذا بالفكرة بعد الفكرة ، وينتفعا بالتجربة العلمية بعد التجربة . ولكن يضرهما كثيرا ويقلق حياتهما أن يعيشا في ظل عقيدة مضطربة وأخلاق مقلقة وتقاليد مضعضمة .

ونخلص من هذا كله الى نتيجة مقصودة: هي وجوب احتراسا في نقل الأخلاق والتقاليد وطرائق الفنون الأجنبية كلما نقلنا الحضارة المادية والنظريات العلمية . فذلك شيء وهذا شيء آخر في حياة الشعوب

على أن تحقيق هذه النتيجة ليس من الممهولة كما يبدو من هذه التفرقة. فالنفس الإنسانية وحدة يصعب تقسيم قواها المختلفة، ومحاولة التقسيم تحتاج إلى قوة في الإرادة ونضج في الفهم وتدرج في الأخذ بالجديد من كل شيء تدرجا يتفق مع الموروثات القديمة ولا يصطدم معها اصطداما عنيفا ينشئ القلق والاضطراب .

ولكننا نندفع اندفاعا شديدا في تقليد الغرب ، غير مراعين هذه التفرقة بين الثقافة والمدنية وبين الروحيات والماديات .

وفينا من يقول: إننا قد أخذنا من الغرب أدواته وآلاته فيجب أن نأخذ كذلك تقاليده وعاداته. وقد حدث بالفعل أن أواسطا كثيرة فتننت بريق هذا المنطق العقلي ، وغلبها التقليد الاجتماعي ، فسارت مسرعة مندفعة في هذا التيار الشديد .

وهؤلاء المتحمسون لأخذ كل شيء وتقليد كل شيء ينسون الحقيقة الواقعة، وهي أن الشعوب تخضع في تقاليدها لعوامل غير فكرية ، تخضع للمقائد الكامنة في النفوس ، وتخضع للعادات التي تكونت بمرور الزمن في آلاف السنين ، وتخضع لمقلها الباطن الذي لا يسيطر عليه الفكر والمنطق .

وليس يكفي أن ألبس الثوب الإفرنجي لأصبح أفرنجيا في شعوري وإحساسي ، بل لا بد من الزمن الطويل والبيئة المتشابهة والعوامل الخفية التي تعمل في بطن وعلى مهل لتغيير الشعور وتبديل الإحساس .

على أن الشعوب الغربية قد لقيت عاقبة إسرافها في المادية وإغفالها شؤون الروح ، وجاءت هذه العاقبة في صورة الصراع الدموي القاتل بين شعوبها . وسبق هذا الصراع المحلل خلقي واجتماعي ، وبخاصة في فرنسا التي كانت قد أوغلت في البعد عن الدين وعن القيود الاجتماعية .

وكثيرا ما شكنا كتابهم ومفكرهم من إهمال الروحانيات في حياتهم ، فلم يسمع لهم المندفون في تيار المدنية المادية ، الفارقون في الليالي الحمراء ولذات الكراء .

لقد اتجه الغرب انجها ماديا بحتا ، فكانت النتيجة أن استخدم العلم في تحطيم الحضارة ، والاختراع في تكديس آلات التدمير وأدوات التخريب .

ولو كان للغرب "روح" لأحال هذه الأرض فردوسا بالعلم والاختراع ، ونخدم الإنسانية بمجهوداته الفكرية المنظمة . ولكن الغرب جسد ادى دب فيه الفساد ولا بدله من روح تعيده الى الرشاد

إن هذه الروح التي تنقص بالقرب مكنوزة عندنا في الشرق ، فنحن لا نزال — والحمد لله — بنجوة من جوح المادية إلى الحد الذي ابتلى به الغربيون . ولا نزال نتمسك بنجوط كثيرة من ثقافتنا الروحية التي يجب أن نسميت في التعلق بها ، كما يجب أن نحاول إنقاذ الغرب المريض بالمادية عن طريق كوزنا الروحية .

إلا أننا مهددون من ناحية أخرى بطفرة في التقاليد جاءتنا بها التقاليد العسة التي أنشأتها المدنيات الصناعية في بلاد غربية عنا ، بعيدة عن جونا النفسى ومحيطنا الاجتماعى .

ومن هنا أصبحنا نرى في المجتمع المصرى نوعا من التفكك والاضطراب العجيبين . ذلك أن التناقض والانسجام في هذا المجتمع لا وجود لهما ، فلسنا شرقيين ولسنا غربيين .

ففى مصر حفلات ساهرة راقصة في بعض الأوساط يبلغ الاختلاط فيها أشنع أشكاله وأقبح صورته ، وفيها كذلك بيوت تحرم رؤية أبناء الأعمام والعمات لبنات الأعمام والأخوال . وهؤلاء وهؤلاء يعيشون في عصر واحد وعلى بعد أميال .

لا بل إن التناقض ليبدو أوضح من ذلك . فلو فرضنا أن واحدا وواحدة من المتلاصقين في المرقص أدركهما الأجل المعلوم ، لحرمت التقاليد دفنهما متجاورين في مقبرة ، لأن المرأة لا تدفن مع رجل أجنبي ! ولوجد أهلها الذين يسمحون بتلاصقهما في الحياة أنهم لا يستطيعون مخالفة التقاليد بدفنهما متجاورين بعد الوفاة !

هذا مثل واضح للتناقض الصارخ بين تصرفات بعضنا وإحساسه الباطنى . وما أشك في أن أولئك الذين يوغلون في تقليد المجتمع الأوروبى لا يناقضون الوسط فحسب ، ولكن يناقضون وجدانهم وما كمن فيها من الوراثات الراسبة في الأعماق .

أعتقد أنهم يضغطون عواطفهم الشرقية ضغطا شديدا ، وهم يرون زوجاتهم وبناتهم وأخواتهم في أحضان رجال غرباء . ومهما يكن كتبهم لحقيشة مشاعرهم ، فإن هذه القرنيحة قشرة ظاهرة تكن تحتها مشاعرهم الحقيقية ، وقد تسبب لهم متاعب نورماتية وهيستيرية لا يعلمون أسبابها الأصلية .

إن التقاليد والعادات في حاجة إلى البطء والنضوج الهادئ حتى تتحور وتتغير، ولا يكفي في تغييرها مجرد الاقتناع الفكري أو الرغبة في التجديد . فانتقال الماضي ، ورواسب العادة لا تكنسح اكتساحا ، ولكن تتفتت وتذوب بعد الزمن الطويل والعلاج الكثير . والزمن وحده أكبر المؤثرات .

على أنه من الخطئ في الرأي أن نحاول تفهيت شخصيتنا الشرقية وتحطيم كياناتنا الاجتماعية لمجرد التقليد والتحلل من الوضع القومي الذي اشترك التاريخ والبيئة في تكوينه .  
فماذا نكون بعد أن نفلح في هذا بعد الجهد الجهد ؟

إننا لا نكون شرقيين ولا نكون غربيين . ولكننا نصبح خليطا عجيبا ومسحا شامها بين هؤلاء وهؤلاء .

ومحال أن نجد الاحترام الذي ننشده بين أمم العالم حين ذاك . فلا الشرق يعرفنا لأننا خلعتنا رداءه ، ولا الغرب يقبلنا لأننا منطل غرباء في حقيقتنا عنه . وهذا هو الضياع واليوار . لقد سبقتنا أوروبا في المدنية الصناعية ... هذا حق . ولكن هذا سبق ليس خيرا كله . فقد رأيناها تحيد عن التفكير السليم فتجعل من التقدم الصناعي وسيلة للتخظيم والتدمير . وقد برزت وحشية القرون الأولى من خلال المدنية الأوروبية ، واستكس العالم على يديها الى شريعة الغاب وقانون الأذغال .

أما الأخلاق وأما الروح فقد فسدت وتمقتت وضاعت تحت أكداس الآلات وأثقال الماديات ، فلا دين ولا أسرة ولا خلق ، ولا قيادا واحداً من القيود الاجتماعية التي تمتت الإنسانية في صوغها لتصون بها كيانها وتكبح بها جماحها .

هذه أوروبا اليوم جامعة مريضة منحلة متوحشة ينهش بعضها بعضا ، بعد سنوات كثيرة من القلق والحيرة والاضطراب ، أدت الى هذا السعار والولغ في الدماء .

نعم سبقتنا أوروبا في المدنية الصناعية . ولكن كنوزنا الروحية الكامنة في الدين والفن والتقاليد ليست قابلة ولا رخيصة . وليس لدى أوروبا اليوم ولم يكن لديها في أي وقت مضى ما هو أنفس منها . وهي مع ذلك مقومات شخصيتنا القومية ومميزات مبحثنا المعنوية . فالتخلي عنها نوع من نكران الذات واحتقارها .

وقد يكون في بعض تقاليدنا جفاف وقسوة . ولكن هذا لم يكن شرا كله ، فقد صدّ تيار التقليد عن البيئة المصرية الصميمة في الريف ، واحتفظ لمصر بشخصيتها الخالدة .

وربما كان من الضروري تهذيب هذه القسوة ، ولكن يجب أن يسير هذا التهذيب برفق ويمشى بحذر ، حتى يبقى المصريون مصريين ، في عهد الوطنيات والقوميات ما

على جمال الدين